العدد الثاني والعشرون
2005

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1373 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2005 مسيحي

- المادّية في فكر المذاهب المعاصرة
- مكوّنات البنية وسمات الخطاب
- الفتوى بين النصّ الفقهيّ والواقع
- حقوق الإنسان في الإسلام

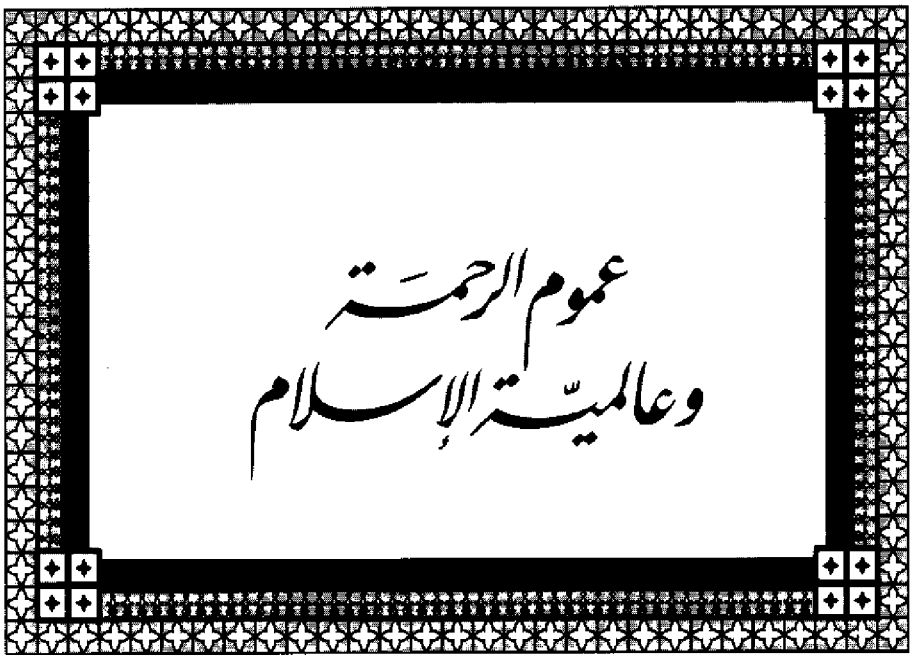

أ.د. أبو زيد المقري الإدريسي
الدار البيضاء بالمغرب

الجمهور الكريم، حضور وضيوف ومنظمي وأعضاء هذا المؤتمر المبارك: أحييكم بتحية الإسلام الطيبة المباركة، وأبلغكم سلام إخوتكم في الله من أرض المغرب الأقصى، وأبارك لكم وللأمة الإسلامية جمعاء عيد الفطر المبارك، وفعاليات هذا المؤتمر المبارك، مؤتمرِ العمل الإسلامي، والبناءِ الحضاري، من أجل إشاعة رحمة الإسلام في ربوع العالمين.

إنه ليشرفني ويسرني أن أكلَّف من قبل إخوتي، الذين أحسنوا الظن بزادي القليل من العلم، فكلفوني بإعداد هذا البحث المتواضع في هذا الموضوع الجليل الشريف، موضوع شرح شعار هذا المؤتمر، المنطلق من قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ وذلك تحت عنوان: عموم الرحمة وعالمية الإسلام.

وإنني أقترح على مسامعكم الكريمة، لتسهيل تناول هذا الموضوع تقسيمَه إلى ثلاثة محاور:

أولاً ـ قرآنية الرحمة:

إن الناظر في القرآن الكريم ليعجب من شيوع الرحمة بلفظها ومعانيها فيه شيوع الروح في الجسد، فألفاظ الرحمة ومرادفاتها ومشتقاتها تتوزع نسيج القرآن الكريم وتزركشه بمعانيها اللطيفة، حتى لتترجم بنيتُه اللغوية حقيقةَ كونِه فعلاً ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] وما أكثر تكرار وصف القرآن لنفسه بصفة الرحمة وما يلابسها من شفاء ونور وهداية. ولو اقتصرنا على استقراء معنى الرحمة المرتبط حرفياً بالمادة المعجمية (ر ح م)، لدهشنا لنسبة تكرار حضور هذه المادة، فهي تتوزع صفحات المصحف كلها، وتبلغ 340 موقعاً، تكاد تكون بعدد أيام السنة، لتبلغ نسبةَ رحمةٍ قرآنية في كل يوم!

ويزيد الأمر رسوخاً أن هذا الرقم يتوزع على 32 تصريفاً واشتقاقاً مما يدل على سعة تداول القرآن الكريم للفظة الرحمة وعِظم تصرفها في ثناياه أفعالَ وأسماء وصفاتٍ، بالمفرد والجمع، بالإسناد والإطلاق، منسوبةً لله عز وجل في غالب الأحيان، ولرسوله وبعض الصالحين في باقي المواقع، موجهةً إلى عموم الخلق، ومخصوصٌ بعضهم بدرجات خاصة بها لتحققهم بأفعال وصفاتٍ خاصةٍ استحقوا بموجبها درجة هذا الاصطفاء. ويكفي أن أذكر أقواها وأرجحها (رَحِم ـ رحمناهم ـ ترحمني ـ سيرحمهم ـ تُرحمون ـ رحمةً ـ الراحمين ـ الرحمٰن ـ الرحيم ـ المرحمة ـ الأرحام ـ رُحماء ـ رُحَما)، ويبرز في هذا الحقل اللغوي الاشتقاقي البديع للرحمة في القرآن، حضورٌ لافت للنظر لكلمتي رحمن (57 موقعاً) ورحيم (95 موقعاً). ذلك أنهما صفتان من صفات الجليل، واسمان من أسمائه العُلى، تطرِّزان كل سور القرآن الكريم مطلعاً وابتداءً (باستثناء سورة التوبة) وعلى رأس هذه السور فاتحة الكتاب، ذات السبع المثاني، وبذلك لا

(1) سورة الأعراف، الآية: 52.

يكتفي القرآن بأن يُفتتح، والمصحف بأن يُبتدأ بالرحمة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وإنما يشفع ذلك بأنْ تَكُون الرحمة تطريزاً لمطالع كل سور الهدي الكريم. ولم تكتف البسملة، ولا الذات العلية بالصفة العادية للرحمة، باستعمال اسم الفاعل: الراحم، بل جاوزتها إلى صيغتي مبالغة، تَسْنُد كل واحدة منهما الأخرى تكراراً وتوكيداً وتعزيزاً وترسيخاً: الرحمن والرحيم! وحين يَستعمل القرآن الكريم نادراً صيغة اسم الفاعل، يشفعها بأن يُسند إليها اسم التفضيل، ويجعلها جَمْعاً مطلقاً: ﴿. . . وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[2].

فإذا انتقل الناظر من اللغة المجردة إلى دلالاتها المضمونية، يُدهشه أن الرحمة تكاد تكون كلَّ شيء إيجابي في القرآن الكريم: كلّ خير أو فضل أو بر أو عمل صالح أو نعمة إلهية أو توفيقٍ رباني أو صَدقة أو حَسَنة أو طاعة في معروف يسميها القرآن رحمة، أو يعللها بالرحمة، أو يجعل غايَتها الرحمة. حتى لَتكاد تكون الرحمةُ الأَوَّلَ والآخر والظاهر والباطن في النسق التعليلي لتشريع الأحكام والأمر بالأفعال والنهي عن المنكرات:

فاللينُ رحمة ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[3] والوحي رحمة ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾[4] والنجاة من الهلاك رحمة ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[5] والنبي رحمة ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[6] وبِرُّ الوالدين رحمة ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾[7].

وكذلك شأنُ تعميم الهداية وإنزالِ التوراة وبعثِ المسيح ونزولِ المطر وعمومِ المغفرة والنجاة من العذاب وحصول الطاعة وحضور التقوى والخشوع

(2) سورة الأنبياء، الآية: 83.
(3) سورة آل عمران، الآية: 159.
(4) سورة الأنعام، الآية: 157.
(5) سورة الأعراف، الآية: 72.
(6) سورة التوبة، الآية: 61.
(7) سورة الإسراء، الآية: 24.

في الصلاة وإيتاءِ الزكاة والاستغفارِ والإصلاح بين الناس والصبر والهجرة وتشريعِ القصاص واستمرارِ الخليقة وجعل الأصلِ الإباحةَ والرزقِ والحكمةِ والعدل والبعث والجنة والحساب العادل وكشف الغمة وتَلَمُّسِ أسباب النجاة والرفقِ بالأيتام والإحسان لذوي الحاجات وتجنب القنوط والدعاء للوالدين وبناء سد ياجوج وماجوج ونعمة الزوجية على الآدميين، وغيرها من المعاني السامية والنعم الربانية، كلُّها توصف في القرآن بأنها رحمة، أو أن سببَها رحمة، أو أن الغاية إنزالُ الرحمة وتعميمها على العُبَّاد والصالحين والمستضعَفين.

لا يكتفي القرآن باعتماد الرحمة معياراً للأفعال النبيلة، ومساراً لرسم الغايات، وبياناً لنزول الآيات وتَنَزُّل النَّعَمَات، وإنما يوجِّه المخاطَبين إلى طلب الرحمة ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[8] إطلاقاً، وتَثَبُّتاً عند المصائب ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[9] وتَفَهُّماً لحكمة الشريعة الغراء: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[10] وتعليماً لنا كيف نقدر رَبَّنَا ونفتح باب الأمل في وجه تقصيرنا وخطايانا، بعبارات ندية تَنْسَجُ نسيج الرحمة والتوبة والمغفرة والسلام لعموم الخاطئين ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[11].

لكن هذه الرحمة لا تأخذ مصداقيتها إلا من عموميتها، إذ لو كانت خاصة، لصارت امتيازاً واحتكاراً لفئة محظوظة فتحولت بالنسبة للمحرومين منها

---

(8) سورة المؤمنون، الآية: 118.

(9) سورة البقرة، الآيات: 156 ـ 157.

(10) سورة الأنعام، الآية: 145.

(11) سورة الأنعام، الآية: 54.

إلى نقيضها نقمةً وشقاء. وحاشى لله العادل الرحيم، ووحيِه الحق الحكيم أن يسير بمنطق الديانات الباطلة أو المحرفة والنِّحَل المنغلقة التي تُشَرع لأهواءِ الطبقات والفئات فتحتكر حتى الوحي وتحوله إلى امتياز.

القرآن الكريم واضح وصارم بصدد عمومية الرحمة، فهو يخاطب بها الناس جميعاً، لا قوماً ولا جنساً ولا طبقة ولا قبيلة مخصوصة محظوظة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ* قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[12] إنها رحمة واسعة ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ تَسَعُ كلَّ العالمين، وتَعرِض عليهم بِيسْرٍ وتواضُعِ شروطَها البسيطة لتنالوا منها جميعاً بلا استثناء ﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[13] فليس مطلوباً ممن يريد أخص أنواع هذه الرحمة وأعلاها وهي الجنة سوى أن يستجيب لفطرة التوحيد والتجافي عن الخبائث وسلامة التصرف، فإذا به ينالها إلى جانب الأنبياء والأولياء والشهداء والصديقين يتقاسمها معهم بعمله بعد أن يدخلوها جميعاً برحمة الله، سواء أكان سيداً عربياً أم عبداً حبشياً، ولد بواشنطن أو درج ببكين، عاصر النبي ﷺ أو أدرك زمن الدجال، لسان حاله، كحال كل المسلمين لله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[14] فأية رحمةٍ، وأيُّ تعميم لهذه الرحمة أوضح من هذا وذاك؟ ولهذا لا تعجبُ إذا وجدنا مصطلح «الرحمة» في صيغة مصدر متحرر من أي إضافة أو تخصيص أو إسناد تتكرر في القرآن 79 مرة!

---

(12) سورة يونس، الآيتان: 57 و58.

(13) سورة الأعراف، الآيتان: 156 و157.

(14) سورة غافر، الآيتان: 7 و8.

إن أكبر دليل على أن الرحمة في القرآن ـ كما خوطب بها المسلمون ـ لا يمكن أبداً أن تكون مصدراً لاحتكارٍ أو استعلاءٍ، هو أنها ترد مسندةً إليهم في سياق الاشتراط عليهم بتصديق الأنبياء السابقين: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[15] ولا عجب إذا كانت هذه الآية الرقيقة خاتمةً لسورة سُمِّيتْ بأسم نبي من أنبياء بني إسرائيل! فإنه القرآن الذي سمّىٰ سورة كاملة منه باسم سورة الرحمن!

ثانياً عالمية الإسلام:

يُفْتَتَح المصحف ب ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ويُختَتم ب ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وبينهما تَسْبح الآيات وتُسَبِّح في فضاء من العالمية لا يقصر الإلهَ على قوم ولا يجعلهم شعبه المختار. إن أحد وأخطر المنزلقات العنصرية باسم الدين وأخطرها في تاريخ الصراع اللاهوتي البشري، للأسف الشديد، هو احتكار الصلة بالله، وبالتالي السقوط في التأله على بقية العباد باعتبارهم «أميين» أو «شعوباً منحطة» بوهم أنهم سُخِّروا لخدمة الطبقة المحظوظة لاهوتياً. وليس دِينٌ كالإسلام، حَذِرٌ حَسَّاسٌ من مُنزلق هذا الاحتكار العنصري، ومِن هنا كان هذا المُفتتح والختام بالإشارة إلى رب العالمين جميعاً، ربِّ الناس كلهم: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[16]. أذكر حين زرت متحف الأديان بولاية كيبك بكندا سنة 1996، وقدمت لي المشرفة عليه برنامج مسابقة ثقافية سوف تُجرىٰ للتلاميذ الزوار، كي أصحح لها ما يتعلق بالدين الإسلامي، ففوجئت بسلامة المعلومات ودقتها من مثقفة متوسطة المستوى لا صلة لها بالإسلام، لكنني صُدمتُ بخطأ واحد كبير في صياغة سؤال: «ما اسم إله المسلمين؟» وإذ صححته لها بتعديل يبدو بسيطاً لغوياً لكنه حاسم تصورياً «ما اسم الإله عند المسلمين؟» انتهزت

(15) سورة يوسف، الآية: 111.

(16) سورة البقرة، الآية: 163.

الفرصة لأشرح لها وللحضور كون الإسلام لا يقبل احتكار الله لجهة، ولا ينغلق في نِحْلَة، ولا يُحدث قطيعةً مع من سبقوه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[17].

إنه ليس من قبيل الصدفة أن تكون سورة الناس، هي آخر سورة في المصحف، حسب ترتيب التدوين بموجب الإرادة الإلهية (مقابل ترتيب النزول بموجب المشيئة الإلهية) ففي ذلك إشارة واضحة إلى أن المآل هو إلى خطابِ ومرحلةِ «أيها الناس»، الخطابِ المناسب لختم الرسالة، وإعلانِ مرحلة النضج البشري في التعامل مع كلمة الوحي بموجب اجتهاد العقل. إنه القطع مع مرحلة «يا قوم» التي انحشرت فيها كل الرسالات السابقة على الرسالة المحمدية، بفعل الواقع الضاغط، لانغلاق التجمعات البشرية، وصعوبة المواصلات وانعدام وسائل الاتصال الجماهيري. فلا عجب أن نجد كلمة «الناس» في معرض المخاطبة والتكليف والتوجيه والإنذار والتبشير، تتكرر 241 مرة، كما أن كلمة «العالمين»، تتكرر 73 مرة، غالبيتها الساحقة في معرض براءة الله من أن يكون إلهاً مخصوصاً لقوم محظوظين، لأنه رب العالمين.

صحيح أن القرآن يخاطب الأقوام السابقين وتنتشر في جنباته عبارات من مثل «يا قوم» منسوبةً إلى كثير من الأنبياء، ومثيلاتها «وإلى ثمود أخاهم»، «أخوهم»، «أخا عاد»، بل إن القرآن ليتكلم عن القرية الواحدة يُبعث إليها النفر من الأنبياء، لكنه حديث تاريخ، وخبرُ ماضٍ، وقَصَصُ عِبرة إنما يتأكد بذكره نقيضه الباهر: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[18].

ينسجم القرآن نسقياً في استعمالاته ومآلاته مع هذا التوجه العالمي، فيتجرد من كل ما هو خصوصي باستعمال الاسم الموصول (1464 مرة) ليتجرد من الأسماء الخاصة وينعتق من ربقة التاريخ والجغرافيا والديموغرافيا ليَسْبَح في فضاء المواقف والأعمال والاختيارات يربط بها أحكامَه وسُننه وحُكْمه وحِكَمه،

(17) سورة البقرة، الآية: 285.

(18) سورة سبأ، الآية: 28.

فليس هناك قبائل ولا أشخاص ولا مناطق ولا دُول ولا طوائف ولا نِحل ولا أجناسٌ ولا ألوانٌ ولا شعوب ولا جماعات ولا أقوام ولا سُلالات، أي لا تخصيص ولا امتيازات. وإنما هي ثلاث مجموعات مفتوحة مرنة، يَدخل إليها من شاء باختياره أو يخرج كما شاء، مُعَلَّقاً طائرَه بِعُنُقه: «الذين آمنوا» و«الذين كفروا» و«الذين نافقوا». وإنما هي أعمالٌ واختيارات يحاسَب بها كل مكلف، سواء أكانت: الذين هاجروا، جاهدوا، اتقوا، أَنفقوا، تابوا... أم كانت: الذين ينقضون، يظنون، يكتبون الكتابَ بأيديهم، اشتروا الضلالة بالهدى، يكتمون ما أنزلنا، لا يعلمون، لا يعقلون، لا يؤمنون...

وهي قوانين وسنن تَسَع الأمريكيَّ والصينيَّ، وليس فقط العربي والتركي، كما أنها تلائم ابن القرن الأربعين ملاءمتها لمن عاش في قرون الغابرين. وما عدا هذا من اختلاف ألوان وثقافات واجتهادات وميولات وأذواقَ واختياراتٍ، فالإسلامُ لا يَضِيق بها، وإنما يراها نِعَماً وآيات وإبداعات. وتلك نقطة فاصلة بين صاحب دين الحق الذي يقبل بالآخر، ولو كان على ضلال، ويفسح له حيزاً للتعايش والتعاون على الخير، ومن باب أولى يقبل الاختلاف معه، بل ويحترم ذلك الاختلاف ويستفيد منه ويستثمره.

لقد برهن الإسلام بما يكفي عن قبوله بالآخر، وعن قبوله بالاختلاف مع الآخر:

أ ـ إن الإسلام يؤسس لقَبول الآخر تأسيساً عملياً وواقعياً عندما يرفض كل أشكال العنصرية تجاه الآخر، كما أنه يرفض تصنيف الآخر بسبب اللون أو الجنس أو العرق أو الاعتقاد أو لغيره من المسببات «غير الاختيارية».

وهكذا تنتفي ذاتياً كل أسباب ممارسة العنف أو الإرهاب ضد الآخر لإذلاله أو إقصائه أو محوه محواً مادياً من الوجود، ما دام يتأسس في ضمير الإسلام التلقائي والمنطقي والمؤصَّل كلُ أشكال قبول الآخر، عوض كل أشكال رفضه.

لنأخذ مثلاً السبب الديني، والذي قد يبدو، بالنسبة لدين كالإسلام جاء يقول إنه خاتم الديانات وإنه ناسخها والمهيمن عليها، سبباً وجيهاً. نجد أن القرآن الكريم في عدة مقاطع عندما يحدد علاقته بالديانات السابقة، قبل أن يقول: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، يقدم قبلها: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾[19] وليست الهيمنة إلغاءً ولا إقصاء، وإنما هي منطق التصحيح والتنبيه إلى ما وقع من التحريف في هذه الديانات، وردُّها إلى أصلها المشترك مع الديانة الإسلامية، والذي هو الأصل الإبراهيمي أو الأصل الآدمي. ودليلي على أن «الهيمنة» هنا هي مفهوم تكاملي وليس مفهوماً إقصائياً، هو ما نلمسه على مستوى التصور والسلوك النبويين، وكذلك سلوك الصحابة في فقه التعامل مع غير المسلمين:

فعلى مستوى التصور، يقول النبي ﷺ في حديث نبوي صحيح بَيَّن فيه موضعه بوضوح عبر مثال فقال: «**إنما مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كرجل بنى بيتاً فأحسنه وأكمله وجَمَّله إلا موضعَ لبنة في ركن. ثم طفق الناس يطوفون بالبيت ويقولون ما أجمله وأكمله لولا تلك اللبنة... فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**»[20]، فجعل النبي ﷺ لدوره ولرسالته ولموقعه موقعَ لبنةٍ صغيرة في ركن قصي من بيت كبير. وهذا ليس تكاملاً فقط، بل هو تواضع كبير أيضاً!

أما على مستوى الفقه النبوي وفقه الصحابة في التعامل مع الآخر، فعندما فتح عمر بن الخطاب بلاد فارس عرض له إشكال فقهي جديد في إطار المستجدات التي تحوج إلى اجتهاد، وهي أنه يتعامل مع نمط جديد من الاعتقادات الجماعية الذي هو المجوسية، فاستشار الصحابة واحتار في الأمر، ذلك أن القرآن والسنة النبوية يؤسسان للعلاقة مع اليهود والنصارى ضمن مفهوم «أهل الذمة»، بحيث تقوم العلاقة معهم على عقد تشارطي يسمح لهم بالعيش مع المسلمين، والتمتع بالحرية في العبادة والعلاقات الاجتماعية، على أن يُترك لهم كلُّ ما يتعلق بالأمور الداخلية. لكنَّ المجوسية ديانة أرضية غير سماوية وغير

(19) سورة المائدة، الآية: 48.

(20) رواه البخاري.

مذكورة في القرآن الكريم، ولا يوجد موقف صريح من أهلها فيه، وانطلاقاً من مبدأ التوحيد الإسلامي الصارم، يُفترض أن يكون هناك موقف جذري منها وهو الرفض. فإذا بعبد الرحمن بن عوف يقول: «أشهد على رسول الله أنه قال: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب»[21]، وبذلك تم توسيع مفهوم الذمية من حيث هو تأسيس لعلاقة إنسانية راقية تقبل الآخر، وتضمن له حقوق حرية العبادة وحرية الاعتقاد وحرية المؤسسات التعبدية، والفقه الخاص الذي تنبني عليه العلاقات الاجتماعية والأحوال الشخصية. كما تم توسيع هذا المجال لكي يشمل كل الديانات المرفوضة مبدئياً بما فيها ديانات أرضية ووثنية وديانات ليس فيها موقع لله أصلاً.

ب ـ أما بصدد قبول الاختلاف، فالإسلام ينظر إلى الاختلاف كطبيعة، أي أنه جِبِلَّة بشرية متأصلة، فلا يعتبره انحرافاً ولا منكراً، ولا استثناء، بل ينظر إليه على أنه الأصل. يقول تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾[22]، فيبين بذلك أنه خلقهم من أجل الاختلاف، وأن الاختلاف جزء من طبيعة وجودهم، لا ينتفي إلا بانتفائهم. والاختلاف في التصور الإسلامي رحمة، يكفي ما يقال عن خلاف الفقهاء: «خلاف العلماء رحمة»، لأن الاختلاف يؤسس للاجتهاد في الرأي. ولأن الاختلاف في زوايا النظرة الشرعية أو الفقهية أو السياسية هو الذي يؤسس للاجتهاد، ولأن الاختلاف جزء من الحرية، فإن الإسلام يجعل من حق الإنسان أن يختلف، ويبني هذا الاختلاف كسلوك فطري على أرضية هي في عمق هذه الفطرة، هي التوق إلى الحرية، والرغبة في الحياة بحرية. كما ينظر الإسلام إلى الاختلاف على أنه خصب، وأن التعدد في زوايا النظر يؤدي إلى إخصاب الفكر والواقع الإنساني بل والمشهد البشري على الأرض.

---

(21) كتاب الخراج لأبي يوسف، نقلاً عن عباس الجراري، مفهوم التعايش في الإسلام، منشورات الإيسكو الرباط 1996. ص47.

(22) سورة هود، الآيتان: 118 و119.

ولم يكتف الإسلام بهذا النظر المجرد إلى الاختلاف بكونه طبيعة ورحمة واجتهاداً وحرية وخصباً، وإنما قام يؤصله بالدليل. فالعلماء يَنْظُرون جميعاً، في أصول الفقه، إلى الاختلاف في الأحكام الشرعية بوصفه اختلافاً طبيعياً وقَدَرياً ولازماً، والفقهُ في طبيعته يتشكل من آراء مختلفة، حتى في الأمر المقدس الذي تَعَبَّدَنا الله به، أي أننا نختلف حتى في فهمنا لأمر الله، حيث نمارس عبادة الله عن طريق فهمنا لهذه العبادة، ونختلف في ترجمتها إلى سلوك دون أن يكون في ذلك تناقض، لأن الحق ولو أنه واحد إلا أنه ليس هو الصواب: الحق واحد والصواب متعدد، ويمكن أن يكون للحق أشكال متعددة من الصواب.

في هذا الإطار تأتي أول بادرة اختلاف أَصَّلَها المسلمون وطَبَّقَها النبي ﷺ بالإقرار. والإقرار مصدر من مصادر التشريع النبوي مِثْل القول والفعل والصفة. ذلك أن النبي ﷺ أمر الصحابة أن يسارعوا إلى بني قريظة فقال: «من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»، لكن لما دخل وقت العصر وهم في الطريق انقسموا إلى قسمين: قسم فهم الأمر النبوي حرفياً وأكمل الطريق إلى أن دخل الليل، فصلى العصر مع العشاء الآخرة، رغم أنه يعتبر من التفريط الكبير أن يصلي المسلم العصر بعد الغروب، وقسم آخر اجتهدوا في فهم النص النبوي فانطلقوا إلى روح النص، ولم يقفوا عند ظاهره وقالوا إنما هو من أساليب الحث والتوكيد، فتوقفوا وصلوا العصر، ثم وصلوا متأخرين قليلاً فصلوا المغرب والعشاء. فلما التحق النبي ﷺ بهم بعد ذلك في اليوم الموالي وحدثوه بالأمر أقر هؤلاء على اجتهادهم، وأقر هؤلاء على اجتهادهم[23]، فأصَّل بذلك لدور الإنسان في فهم النص وتأويله وقراءته وتنزيله على الواقع، مما يدل على استيعاب الإسلام لكون التعاطي الفعلي مع النصوص خلافياً وترجيحياً ونسبياً يحتمل الخطأ. والإسلام هو الذي أصّل للثواب على الخطأ، وليس فقط لإعفاء الناس من جريرة الخطأ، عندما اعتبر المجتهد المخطئ مأجوراً، ولم يكتف بالقول: من اجتهد فأصاب فله أجر، ومن اجتهد فأخطأ فلا شيء عليه، فهذا

(23) صفي الدين المبار كفوري: الرحيق المختوم دار المعرفة الدار البيضاء 2000. ص288.

ليس محفزاً. وإنما قال «إذا اجتهد الحاكم فأخطأ، فله أجر وإذا اجتهد فأصاب فله أجران (البخاري ومسلم). وحتى هذا التمييز البسيط، ليس لتفضيل المصيب على المخطئ، فكلاهما مجتهد. ولكن لحفز الناس على إتقان الاجتهاد، حتى لا يكون مجرد اجتهاد لأجل الاجتهاد، وإنما الاجتهاد من أجل الوصول إلى الصواب، ولولا هذا الأمر لسوى الإسلام بين المجتهد المصيب والمجتهد المخطئ. وهكذا يحارب الإسلام التنميط والحرفية في فهم النصوص، ويحارب الارتباط الشكلاني الذي يقوم على الانصهار في بوتقة واحدة، مما يؤدي إلى إلغاء البعد الفردي والاختلاف وإلغاء الجانب الذاتي والخاص في أسلوب الإنسان وعقليته ونفسيته. وبالتالي لا يمثل الإسلام حالة نفاق عامة للناس يرتبطون فيها بالدين بارتباط منمط عبر سلطة فكرية قاهرة تطبعهم بطابع واحد وتجعلهم في قالب واحد، وإنما يغذي التدينَ والإيمانَ ويعطي للتعاطي مع النص حيوية ويدفعه إلى أن يتحلى بالزخم الواقعي للطبيعة البشرية القائمة على الاختلاف.

إن الإسلام يقبل الآخر ذاتاً وفكراً، وهذا ما يدفعه إلى أن يضع نظرية في تدبير التعايش، بناء على أن الآخر أمر واقع، وأن الاختلاف مع الآخر أمر واقع أيضاً، ويبني الإسلام تصوره لتدبير التعايش على جملة عناصر، نكتفي بذكر ثلاثة منها فقط، أولها تصوري وثانيها أخلاقي وثالثها عملي:

أولاً: التفاهم: فالإسلام يبحث دوماً عن أرضية مشتركة، ويدعو إلى توفيرها كي تجعل الخلاف قابلاً لأن يتعايش به في إطار مشترك يمكن أن يتحول إلى فعل مشترك، ومستقر ومنسجم. هكذا نقرأ قول الله عز وجل في حوار مع اليهود والنصارى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[24]، والقرآن يتنازل بموجب ذلك منهجياً عن الشق الثاني من الشهادة «محمد رسول الله»، لأن هذا الأمر مرفوض من الآخرين، ليكتفي بالمشترك الذي هو الإيمان بالله، وليؤسس

(24) سورة آل عمران، الآية: 64.

به أرضية إنسانية منسجمة تقوم على التعاون والتعايش بين الديانات الثلاث، هي ما يطلق عليها القرآن الكريم «الكلمة السواء».

ثانياً: التحاور: لقد رفض الإسلام كل الأشكال العنيفة للتدافع، وطالب بشكل حضاري سلمي معنوي للتدافع، هو التدافع بالفكرة والكلمة، وبكل ما يمكن أن يحقق التواصل وليس التنافر. والحوار هنا يأخذ مجالات أرقى، كما يوصف بصفات ويقيد بقيود منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[25]، هكذا نؤمر بأن نجادل ب«التي هي أحسن»، وقد أمرنا بذلك أيضاً بقوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[26]. وهنا التفاتة لطيفة عندما نلاحظ أن الموعظة تكون حسنة، أما الجدال فيكون أحسن، لأن الموعظة تكون للموافق، في حين أن الجدال يكون مع المخالف. وإذا أُمر المسلمون بأن يُحَسِّنوا خطابهم مع الموافق، فقد أُمروا بدرجة أعلى من التحسين مع المخالِف، حيث يكون المحاوَر عرضة للانفلات والانزلاق إلى العنف المادي أو الرمزي، فيحتاج إلى الاحتياط وضبط النفس، وإلى مستوى عال من التحكم في الاندفاعات «الغَضَبية» عند الإنسان لمواجهة المحاوَر بغير خشونة، حتى يواجه الاختلافَ مُتحلياً «بالأحسن» ليكون حوارُه مقبولاً وسليماً.

ثالثاً: التعاون: وهو يبسط المجال العملي لتدبير التعايش حتى لا يبقى مجرد محسنات وتَحْليات وعواطف ومجاملات، وإنما يتحول إلى إنجاز إنساني مشترك بين جميع الأطراف، يحقق التعاون فيما هو متفق عليه، فيما هو مشترك، أو في المجالات الحيوية والضرورية. والإسلام يحض على هذا التعاون بدءاً بتناول الأطعمة بشكل يؤصِّل لبعد اجتماعي أخلاقي: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾[27]، إلى المصاهرة وتبادل العلاقات بالرحم والقربى،

---

(25) سورة العنكبوت، الآية: 46.

(26) سورة النحل، الآية: 125.

(27) سورة المائدة، الآية: 5.

فالقتال المشترك في وجه المعتدين، بحيث أمرنا أن ننصر المظلوم ولو كان كافراً. ناهيك عن التعاون في تدبير الشأن العام والشأن الخاص والمحلي والشأن الدولي، سواء أتعلق الأمر بالحفاظ على المجال البيئي الحيوي أم بالحفاظ على المجال الحضاري الإنساني.

ويمكن أن نلخص الأساس التصوري العميق لهذه العناصر الثلاثة في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[28]. هذا المعنى الرائع ينفي عن المسلمين كبشر مبدأ التميز عن الآخرين، ويجعل الناس جميعاً سواء أمام القانون الإلهي، سواء أكانوا يهوداً أم نصارى أم مجوساً أم غيرهم، ويتعمق هذا المعنى أكثر إذا اقترن بذكر سبب النزول:

يذكر أن المسلمين اختلفوا مع اليهود والنصارى في عهد رسول الله ﷺ، وادعى كل واحد منهم أن له الحق والجنة احتكاراً، وأن نبيهم هو النبي الحق. ففزع المسلمون إلى النبي ﷺ، يذكرون له ذلك وهم يتوقعون أن جوابه سيكون الجواب الطبيعي والمنطقي عند كل مسلم: إنكم أهل الحق وأهل الجنة احتكاراً. لكن الوحي نزل يخيب أحلام الجميع، ويسويهم أمام قاعدة كونية، مفادها أَنْ ليس بأمانيّكم ولا بأمانيّ أهل الكتاب. فبيَّنَ أن هذا النقاش كله هو نقاش أهواء بعيداً عن الواقع وعن السنة الكونية وعن الأخذ بالأسباب في الدنيا والآخرة. فالمسلمون سواء أمام الله مع بقية الناس، إذا أخطأوا المنهج وعملوا السوء فإنهم يعاقبون في الدنيا وفي الآخرة[29].

هكذا يؤصل الإسلام لأرضية مشتركة بين كل خلق الله، قائمة على العدالة الإلهية الحقيقية التي تجعل الناس سواء أمام القانون الإلهي، والذي يقوم على أن «من أحسن فله الحسنى ومن أساء فله السوء» في الدنيا وفي الآخرة. وفي هذا الإطار يتضح معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ

(28) سورة النساء، الآية: 123.

(29) النيسابوري: أسباب النزول المكتبة الثقافية بدون ط وع ص103 ـ 104.

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[30] و«مَنْ» هنا للعاقل المجرد وليست موسومة بصفة دينية ولا صفة عرقية ولا جنسية ولا لونية، وهذا واضح في القرآن في تصحيح الانحرافات الدينية، فعندما قالت اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، أجابهم القرآن بقانون: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، ويضيف: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾[31]، فأنزلهم إلى مستوى الآدمية المشتركة، ونفى أي صفة أو تأسيس لعقيدة عنصرية: عقيدة شعب الله المختار، أو عقيدة «نحن الأحق» أو «نحن الأولى» التي تبيح للإنسان اللجوء إلى العنف[32]. فأي رحمة مثل هذه؟ عاطفة حب وإنصافاً تسوى البشر جميعاً أمام قانون الله العادل، لكنها عاطفة تتأسس على بناء عقلي وتصوري صارم!

أما الحضارة الغربية القائمة على أسس الأخلاق المسيحية ـ اليهودية كما تزعم لنفسها، فلم تثبت قط قدرتها على قبول الآخر، ولا على تحمل الاختلاف معه، ولا على فهم العالم إلا على صورة نمطية موحدة، هي أن يكون انعكاساً لصورتها المهيمنة، منذ عهد الرومان إلى زمن العولمة.

إن أحد ثوابت الفكر الغربي هو «نفي الآخر». وقد وضح ذلك جيداً مفكرون نقديون متميزون ممن لهم فضيلة الفكر المؤسس والإبداع المتميز، بل والعيش لمدة طويلة داخل المجتمع الغربي[33] كجارودي وإدوارد سعيد، بينوا أن الغرب لا يحاور الآخر ولا يقبله، وأنه في العمق يحاور نفسه بنفي الآخر، لأن الآخر مشروع للهيمنة والإقصاء، بما أنه مشروع للتحكم والسيطرة والاستغلال، وليس مشروعاً للتعايش.

---

(30) سورة الزلزلة، الآية: 8.

(31) سورة المائدة، الآية: 18.

(32) انظر: المقرئ الإدريسي أبو زيد: موقف القرآن الكريم من العنف. في: الديانات السماوية وموقفها من العنف (مشترك) منشورات الزمن سلسلة كتاب الجيب ع32 البيضاء 2002 ص46 ـ 48، 50 ـ 55.

(33) انظر الموسوعة الضخمة التي أنجزت تحت إشراف د. عبد الوهاب المسيري تحت عنوان «إشكالية التحيز» نشر المعهد العلمي للفكر الإسلامي (فرجينيا) ونقابة المهندسين (القاهرة) ط1. 1995. وانظر إدوارد سعيد: «الاستشراق»، وإدوارد سعيد: «الثقافة والامبريالية».

يقول فؤاد سعيد: ولأن العلاقة علاقة معرفة فقط، وعلاقة انفصال واغتراب، فقد كان أمراً طبيعياً أن تصبح علاقة عدائية، ذلك أن الهدف النهائي لإنسان الغرب الحديث تَحدَّدَ في معرفة العالم وفهم قوانينه من أجل السيطرة عليه... وذلك في تجسيد واضح لذلك المنظور الذي نجده عند دارون، كما نجده عند هوبس «الإنسان في حرب دائمة مع الآخرين...»[34].

إننا نجد أن الغرب عبر تاريخه الطويل، رغم أن خطابه اليوم هو خطاب التسامح والإنسانية والتعايش والديمقراطية وحقوق الإنسان، كان دائماً يُقصي ويَنفي الآخر. فمن الرومان إلى الأمريكان، من الامبراطورية الرومانية إلى العولمة الأمريكية، نجد حواراً متمركزاً حول الذات أو ما يسمى «التمركز حول الأنا». فالغرب لا يحاور الآخر، وإنما يحاور نفسه بصدد الآخر، ويتحدث مع نفسه عن أشكال تصور الآخر وعن أشكال التعاطي معه والهيمنة عليه واستغلاله ومحاولة تنميطه بإلزامه بالمقاييس والمفاهيم الغربية.

فمن الرومان، الذين كانوا يعتقدون بضمير مرتاح أن الأمة المهزومة تفقد حقوقها بكل بساطة، لأن المنتصر يؤسس لعقيدة القوة عن طريق الانتصار، والمهزوم مهزوم لأنه فقد القوة، إلى أمريكا التي تقول اليوم: «من ليس معي فهو مع الإرهاب»، وتختصر البشرية كلها في حذلقة سوفسطائية نفاها الفكر الإنساني الغربي نفسه منذ ألفين وخمسمائة سنة، عندما جاء سقراط لكي يحارب السوفسطائيين الذين كانوا يعتمدون على الاستدلال القائل: «أنا لست أنت وأنا لست الحمار، إذن أنت الحمار!»، كأنه لا يوجد في الدنيا إلا أنا (أي الذات الغربي)، والآخر هو الحمار!. هذا المنطق السوفسطائي المرفوض الذي جاءت بواكير الفلسفة الغربية الناضجة (يا للمفارقة، متجسدة في فكر سقراط) لتهدمه وتسخر منه وتحطمه وتنفي أسسه، تستغله أمريكا اليوم على لسان بوش. وهذا عين التتويج لمنطق القهر العولمي في الاقتصاد والثقافة، والسياسة وحقوق

(34) فؤاد السعيد، «التحيزات المعرفية في الرؤية الغربية الحديثة للعالم» في «موسوعة إشكالية التحيز» 1/ 153، وأيضاً عبد الوهاب المسيري: هاتان تفاحتان حمراوان. في «موسوعة إشكالية التحيز» 1/ 99 ـ 113.

الإنسان، وكذا في قضية المرأة وقضية الطفولة والقضايا النقابية والعلمية والمنهجية. الغرب يريد أن يكون الآخر نسخة له بالشكل الذي يريده هو، وليس ما يريده الآخر لنفسه. وحتى إن أراد أن يقلده بطريقته الإبداعية لكي يبني ذاته بقوته، فإنه لا يقبل ذلك ولا يسمح به. هذا على مستوى التاريخ الروماني والتاريخ المسيحي الذي «ترومن» بعد ذلك.

أما بالنسبة إلى الفكر اليهودي، فالتوراة والتلموذ يتأسسان على إلغاء الآخر ورفضه. فنوح غضب على ابنه حام وجعله عبداً مع سلالته لابنه سام وسلالته، واليهود طينة غير طينة البشر، وأرواحهم جزء من الله، أما الجوييم فأرواحهم شيطانية، وخلقوا من نطفة حصان. وإذا ضرب يهودي فكأنما ضربت العزة الإلهية، وجزاء ضاربه الموت. وقد خلق الله غير اليهود على هيئة إنسانية ليكونوا لائقين بخدمة اليهود. وأموال الجوييم ودماؤهم وأعراضهم حلال لليهودي، وانتهاكها قربى لله. ولا يحرم على اليهودي الظلم إلا تجاه اليهود، لأنهم شعب الله المختار[35].

أما الحاخام الأكبر لإسرائيل، لليهود الشرقيين، فقد طرح في الصلاة الرسمية التي تمر عبر وسائل الإعلام منذ مدة قصيرة بعد اندلاع الانتفاضة، بأن الرب «قد أخطأ بأن خلق بني إسماعيل، ونحن سوف نصحح خطأ الرب بإبادتهم جميعاً». وهذه ليست حالة غضب كفر فيها حبر يهودي بالله، وإنما هو اعتقاد مؤصل لدى اليهود يسمى عقيدة «البداء»، وهي أن الرب يخطئ فيصحح له الحاخامات![36].

---

(35) انظر تفصيل ذلك: إسرائيل شاحاك، «الديانة اليهودية وتاريخ اليهود وطأة ثلاثة آلاف عام، ترجمة رضى سلمان، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، لبنان ط1. ص161 ـ 29. سعد الدين صالح، «العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية»، مكتبة الصحابة، جدة، ط3، 2001، ص175، 207 ـ 197، 354 ـ 349. نقلاً عن: المقرئ الإدريسي أبو زيد، مرجع سابق ص42 ـ 43، 87، 48 ـ 50 بتصرف.

(36) سعد الدين صالح، مرجع سابق ص189. يبدو أن هذا المعتقد الوقح، تسرب إلى الأصولية المسيحية المتصهينة التي تحكم أمريكا بالبروتستانتية المتطرفة، والتي تدعم إسرائيل باعتبارها مشروعاً مسيحياً يؤسس ويمهد لشروط نزول المسيح (انظر كريس هالسل: «النبوءة والسياسة»،

قد يصطدم الحديث عن الرحمة في الإسلام، عمومها وشمولها وحساسيتها، بواقع أليم هو كون المسلمين قد خاضوا في الدماء، خلال الحروب المريرة التي قادها الرسول ﷺ والصحابة من بعده في زمن الفتوح. حتى قال المستشرقون ومن لف لفَّهم، إن الإسلام قد أكره الناس بالسيف ومارس عليهم القتل، ووضعهم تحت طائلة الإعدام من أجل أن يدخلوا فيه ويعتنقوه. لقد جيش الإسلام، حسب هذه الدعوى، جيوشاً وفتح بها العالم، وبالتالي فالإسلام مثل باقي الامبراطوريات الكبرى قد لجأ للقوة، واستعمل أقساها وهي القوة العسكرية لاحتلال الشعوب وإكراهها على التحول إلى الإسلام. وبالعبارة التقليدية: «إن الإسلام انتشر بالسيف. فأين هي الرحمة؟ وما جدوى ادعائها في خضم الحروب والاقتتال؟

وللجواب على هذه الشبهة، لا بد من التفصيل في مستويين:

أولاً: السياق التصوري: نستشف من قوله تعالى في إعلان واضح وصريح ومبدئي: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[37]، أن القرآن يبين كون الفطرة الإنسانية والفطرة الإسلامية تنبذ العنف وتكره استعمال القوة أو الإفراط في هذا الاستعمال. إنها فطرة مسالمة سلمية. ومعلوم القاعدة الكلية في الإسلام، وهي أن التشريعات تتأسس على أساس الفطرة، فالأمر بالتوحيد ينبني على فطرة عبادة الله عز وجل وتوحيده وتعظيمه، أمر الزوج بالنفقة على عياله يرتكز إلى فطرة الكرم التي ركزت في الإنسان، النهي عن الظلم والإيذاء والاعتداء يستند كتشريعات إلى أن الإنسان مفطور على كراهية الظلم وعلى استنكار الاعتداء، والنهي عن الكبر مبني على أن الإنسان قد ركزت فيه فطرة

لأخذ تفاصيل ذلك). يعتقد الأصوليون المسيحيون أن الرب أخطأ عندما جعل النفط في بلاد قاحلة، ولم يجعلها في بلاد الصناعة والتكنولوجية، وهم سوف يصححون خطأ الرب بأن يهيمنوا على مصادر النفط لكي يضخ طبيعياً في الحضارة التي تستحق وتستأهل هذا النفط، لأنها هي التي استخرجته وكررته وأنتجته وسوقته، وهي التي تصنع وتخترع ما يوظف فيه هذا النفط من مولدات وسيارات ونحوها.

(37) سورة البقرة، الآية: 216.

التواضع وكراهية المتكبر، فلا يكره الإنسان شخصاً لم يؤذه كما يكره المتكبر لمجرد مشيته المتبخترة. كل هذا يدل على أن ما أسميه «بالتأسيس الفطري للأحكام الشرعية» مطرد في كل أحكام الإسلام، ومعنى هذا أن التأسيس لحكم شرعي بالمسالمة وتجنب العنف يستند على فطرة كراهية القتال، مما يقوم دليلاً واضحاً على أن القتال حالة استثنائية في الإسلام.

ثانياً: يبين «السياق السياسي والتاريخي» لتشريع القتال في القرآن الكريم ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[38]، أن الإذن بالقتال نزل في سياق الدفاع والاقتصاص، وهذا هو الشرط الوحيد والظرف الوحيد والاستثناء الوحيد الذي يجيز فيه الإسلام استعمال القوة، أي يجيزه لمواجهة القوة، استعمال الردع لمواجهة الاعتداء، استعمال الخشونة لمواجهة الخشونة المضادة.

إن هاتين الآيتين وغيرهما لا تكتفيان بالتشريع أو البيان، وإنما تخلقان جواً عاماً، ينبذ عبادة القوة والاحتكام إليها، وهو جو مناقض للجو العام الذي نزل فيه القرآن، والذي ظهرت فيه دولة الإسلام، بحيث كانت جميع الدول والأمم المحيطة به تعبد القوة، من الرومان إلى الفرس إلى الحبشة وغيرهم. إن الحديث عن الجهاد في القرآن هو تدبير حل لمشكل لا سعي لخلقه، وإن تشريع الجهاد ليس للمبادرة بغرس هذا السلوك كاختيار عند المسلمين، وإنما هو سعي لمواجهة حالة موجودة وقائمة وما زالت عند البشرية إلى اليوم.

إن سياق الحديث عن القتال واعتماد القوة واضح في عموم تشريع الإسلام (مثل سياقات الحديث عن مشكل الرق أو مشكل الفقر أو مشكل العنف في العلاقات الاجتماعية) الذي جاء لتدبير هاته المشاكل لا لتبنيها.

ويتبين ذلك أكثر عندما ندخل في تفاصيل فقه الجهاد، فمن جهة يعتبر الإسلام استعمال القوة في الجهاد حالة اضطرارية تتوقف فور توقف دواعيها:

---

(38) سورة الحج، الآية: 39.

﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[39]، وجواب الشرط هنا بالفاء الملزمة بالفور والعجلة والسرعة، بمجرد ما يكف العدو عن الاعتداء، على المسلم أن يتوقف فوراً عن عملية رد هذا الاعتداء. فهذا عهد سلم لكف الأذى المتبادل، يأمر القرآن بتبنيه. وعندما يتكلم القرآن الكريم عن «المعاهدين» ينهى عن كل أشكال إيذائهم أو نقض العهد معهم، ويعتبر ذلك غدراً وكفراً يخرج من الملة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[40]، وعندما يتكلم القرآن الكريم عن ضبط العلاقات مع الآخر، يحددها تحديداً عملياً قائماً على محدد واحد وهو درجة استعماله للعنف: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾[41]، فالقرآن يبين بوضوح أن الموقف من الآخر ليس موقفاً من دينه ولا من عقيدته ولا من حضارته ولا من حقه في الوجود، ولا من هيمنته على جزء من هذه الأرض أو من مساهمته في بناء الحضارة أو منافسته للمسلمين في مجالات اقتصادية أو سياسية أو ثقافية، وإنما هو موقف من اعتدائه على المسلمين، فمن اعتدى على المسلمين حرمت معاشرته ومبايعته ومناكحته والتعاون معه، وإذا توقف عن إيذائهم فإن كل ذلك يعود إلى دائرة الجواز، بل ويصبح هو الأصل! وعندما يقول عز وجل: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾، يبين أن الأصل هو البر وهو القسط وهو الإحسان، فلسنا مأمورين فقط بمهادنتهم أو مسالمتهم وعدم الاعتداء عليهم، بل نحن مأمورون بالإحسان إليهم والبر بهم والإقساط إليهم، وهذا مستوى عال في العلاقات الإنسانية. لكن ذلك يتوقف استثناء إذا كان هناك داع واحد، وهو أن يقاتلونا في الدين لإكراهنا على الرجوع إلى الكفر ونزع صفة الإسلام عنا أو إخراجنا من ديارنا أو المظاهرة على إخراجنا. وحتى عندما يحتاج المسلمون لذلك، فإن على المسلم ألا يغدر وألا يبيت وألا يباغت، وعليه أن يعذر وأن

---

(39) سورة الأنفال، الآية: 61.

(40) سورة التوبة، الآية: 4.

(41) سورة الممتحنة، الآيتان: 8 و9.

ينذر ويوضح: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾[42]، فلا بد أن ينبذ المسلم إلى العدو، ويعلمه ويهيئه نفسياً وينذره بالحرب، فإن أصر على الخيانة، يقاتله، وإذا لم يصر فإنه يرجع عن الأمر.

نجد القرآن إذن يدعو إلى السلام كحالة شاملة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[43] وليس أقوى من هذه الآية وليس أشد منها بياناً في أن السلم حالة عامة وشاملة وأصلية، وأن المسلم لا يؤمر بالتحلي بالسلم فقط بل يؤمر بالدخول فيه كأنه فضاء يلفه من كل جانب. و«السلام» اسم من أسماء الله الحسنى، وهو يدعو إليه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾[44]. كما أننا أمرنا بإفشاء السلام، وتحيتُنا هي السلام، وتحية أهل الجنة السلام: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[45]، وليلة القدر المقدسة: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[46]، والمبدأ أن المسلم يختم صلاته بالسلام. فهل يمكن أن يكون هذا مجرد حالة فصام تقتصر على مستوى الخطاب وتتعايش مع واقع حب القتال والركون إلى العنف؟؟ يقول الرسول ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام»**[47].

هذه الروح العامة تجلت في سلوك المسلمين، فكل الحروب التي خاضها النبي ﷺ كانت حروباً دفاعية، «بدر» مثلاً، كانت من أجل أن المشركين جاؤوا يعتدون على حقه في استرجاع بعض ما نُهب من المسلمين في الهجرة، و«أحد» كانت مبتدرة من المشركين من أجل الانتقام، و«فتح مكة» كانت لرد غزو المشركين على حلفاء المسلمين، وختمت بموقف: «أنتم الطلقاء». ولو كانت رغبة النبي ﷺ في القتال لمارس القتال بعقلية المقاتل، ولما أنهاه بالعفو عمن

---

(42) سورة الأنفال، الآية: 58.

(43) سورة البقرة، الآية: 208.

(44) سورة يونس، الآية: 25.

(45) سورة إبراهيم، الآية: 23.

(46) سورة القدر، الآية: 5.

(47) رواه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد.

آذوه وأخرجوه وطردوه، وهددوا وجود الإسلام طيلة فترة الدعوة وطيلة فترة الدولة. لكن بعض المسلمين اليوم، ولظروف نفسية وفكرية وسياسية، ينظرون إلى الفتوحات والمعارك الكبرى في تاريخ الإسلام الأول، بطريقة لا تؤسس لعقلية سليمة، ويبالغون في وضعها خارج سياقها الطبيعي كحالة اضطرار، أو كحالة طوارئ كما يسميها منَظّر السلمية الإسلامية المعاصر جودة السعيد.

وقد تمثل الخلفاء الراشدون ـ رغم خوضهم لمعارك شديدة طيلة فترة حكمهم ـ هذه الروح فاجتهدوا لتحرير الشعوب المجاورة من طغيان الفرس والروم، مع تقليل الخسائر الروحية والمادية جهد الإمكان. فعمر بن الخطاب مثلاً، يرسل عدداً من الرسائل إلى جنده المنتصرين يردعهم فيها عن الاعتداء: «... ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها... ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح»[48]، ويهدد من يخدع بالأمان محارباً ليقتله بأنه «والذي نفسي بيده، لا أعلم مكان واحد فعل هذا إلا ضربت عنقه»[49].

بل إن الجهاد، حتى عندما توسع كان يستهدف ضرب القوة السياسية والعسكرية للدول الديكتاتورية التي تقوم على حرمان الناس من حق الاختيار وحرية اتباع الدين الذي يريدونه. فإذا رفعت هذه الوصاية عن الناس بفضل الجهاد، خير المسلمون الناس بين أن يسلموا أو يبقوا على ما هم عليه. فقد فتحت فارس وبقي أهلها مجوساً دون أن يمسهم أحد، وألحق المجوس بأهل الذمة. كما أن المسلمين لما وصلوا إلى الصين وأذن لهم ملكها بحرية الدعوة وبناء المساجد، توقف القتال وانتشرت الدعوة سلمياً عن طريق التجار.

لقد شرع الجهاد من أجل أن يتحرر الإنسان، ومن أجل أن يتمتع بحرية الاختيار العقدي لإعطاء الناس فرصة الاختيار بعيداً عن نظام مستبد يحرمهم من ذلك، ويلزمهم بقانون: «الناس على دين ملوكهم». يضاف إلى هذا، الأخلاق

---

(48) نقلاً عن علي أحمد الخطيب: عمر بن الخطاب، عالم الكتب بيروت ط1. 1986 ص348.
(49) نفسه ص310.

المصاحبة للقتال كحالة طوارئ اضطرارية، والتي يزيد الإسلام من التشديد عليها، مثل النهي عن قتل النساء أو الأطفال، أو الشيوخ أو الأسرى، أو الجرحى، ومراعاة البيئة، وعدم التنكيل بجثث القتلى. ومعروفة هي الواقعة المشهورة التي اضطر المسلمون خلالها إلى أن يقطعوا بعض نخيل خيبر لتخويف اليهود المحاصرين حتى يقنعوهم بالاستسلام، لقد أذن لهم بذلك استثناء، وفي إطار ضيق جداً، وجاء في السيرة أنهم قطعوا ثمان نخلات، ومع ذلك فقد حصل عند المسلمين بحكم التربية التي أنشئوا عليها، أزمة ضمير تجاه هذا الفعل، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[50] يعزي المسلمين ويسوغ لهم أمر قطع النخل استثناء وبعدد محدود جداً. لقد أمر المسلمون بكل أشكال الرفق المصاحبة للقتال رفقاً بالإنسان والبيئة، رغم أن القتال بطبيعته ليس من قبيل الرفق، فالمسلمون مأمورون بالإحسان حتى في حالة «الاضطرار إلى الإساءة»، ومأمورون بالرفق حتى في حالة استعمال القوة. ولا أدل على أن عقلية الإسلام لا تنسجم مع اختيار العنف، وأن مشروع الإسلام مشروع مدني سلمي، وليس مشروعاً حربياً عسكرياً، ما فعله النبي ﷺ حين كاتب شطراً من أسرى بدر على أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة مقابل أن يطلق سراحهم[51] فهل يمكن للذي يريد أن يستعمل الحرب نفسها للبناء، للعلم، للحضارة ولتركيز الاختيارات المدنية السلمية، أن يكون طالباً للحرب وراغباً فيها، ومتقصداً لإشعالها، حيثما أتيح له ذلك؟!

هكذا نرى أن الإسلام يتحدث عن القوة، والحرب والجهاد، باعتبارها كرهاً لنا، وباعتبارها حالة استثنائية، حالة دفاعية يقيدها بكل الاحتياطات وبكل ما يخفف من وطأتها، ويدعو إلى إنهائها بأسرع ما يمكن من الوقت عندما يتوقف الداعي الخارجي، ويسعى فقط إلى أن يبحث عن أي مجال لحرية

(50) سورة الحشر، الآية: 5.

(51) المبار كفوري: مرجع سابق ص270.

الدعوة تغنيه عن استعمال القوة ضد الديكتاتوريات الوصية، وينتهي بمجموعة من الإجراءات الإصلاحية المصاحبة التي تجعل هذا السلوك على طبيعته الخشنة حضارياً ومخفف الأثر إلى حد بعيد[52].

لقد خاض المسلمون حروباً عديدة، لكنهم لم يحملوا فكر الإبادة، ولم يسوغوه بدين، ولم يمارسوه قط. إن الاقتتال عندهم يتوقف فور الجنوح للسلم، فلا إجهاز على جريح، ولا قتل لأسير، ولا مس بأذى لمن هم خارج المعركة مطلقاً!

وبالمقابل، فقد تلبس الغربُ بثقافة الإبادة تنظيراً وتأصيلاً وتسويغاً من الدين، وإنجازاً رهيباً متواصلاً من محاكم التفتيش، بل وقبلها، إلى معارك الفلوجة، فاتحاً على بقية البشرية المظلومة أبواب جهنم، وهو هانئ الضمير.

إن الولايات المتحدة لم تعتذر إلى اليوم عن إبادة مائة وعشرين مليون هندي، بل إنها تقيم المتاحف والتماثيل لأكبر السفاحين لهذا الشعب المباد، وتدرسهم كأبطال تاريخيين في مقرراتها وتنجز عنهم الوثائق الإعلامية! ويُعتَبر جزء واسع من الثقافة المسيحية البيوريتانية البروتستانتية المتصهينة، أساساً لتسويغ الإبادات، بل واعتبارها «ضرورة أخلاقية» وإرادة إلهية! وبَيَّنت أن الولايات المتحدة الأمريكية تقوم دينياً منذ نشأتها على ستة أسس أولها «المعنى الإسرائيلي لأمريكا» وآخرها «حق التضحية بالآخر»[53].

ارتكز فكر الإبادة عند الغرب على أصول توراتية تمنح مبررها من أوامر العنف الدموي الهائل الذي تحبل به نصوص التوراة المنسوبة كذباً للوحي، باعتبارها أوامر مقدسة، يعتبر تنفيذها قُربة لإله خاص بشعب خاص، (لم يعتبر

---

(52) راجع: المقرئ الإدريسي أبو زيد. مرجع سابق ص76 ـ 80.

(53) انظر في ثقافة الإبادة تأصيلاً فكرياً ونفسياً: عبد الوهاب المسيري: الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ. وتأصيلاً دينياً: غريس هالسل النبوءة والسياسة، وممارسة رهيبة: منير العكش: أمريكا والإبادات الجماعية. وكليف تورنبل: حرب قذرة.

المسلمون قط أن الله لهم وحدهم!)، وخصوصاً سفر يشوع المخصص لعمليات الإبادة الشاملة المشار إليها بمصطلح خاص «التحريم» وهي إبادة يفاخر بها، وتُنسب لأوامر مقدسة وإرادة متعالية لتطهير الأرض من «الأجناس المنحطة»، التي تتلبسها أرواح شريرة.

ولنستعرض على سبيل المثال بعض النصوص الرهيبة من سفر يشوع المنحول على التوراة رغم أنه رواية تاريخية متأخرة كُتبت على ضفاف نهر الفرات زمن السَّبي بنفسية المقهور الذي يستعيض عن الواقع بأحلام السيطرة:

الإصحاح الأول: «بعد موت موسى عَبْدِ الرب. قال الرب ليشوع بن نون خادم موسى: والآن وقد مات موسى عبدي، قُم واعبُر نهر الأردن هذا، أنت وهذا الشعب كلُّه، إلى الأرض التي أنا واهبها لبني إسرائيل (...) ولن يقدر أحد أن يقاومك كل أيام حياتك. لأني سأكون معك كما كنت مع موسى».

الإصحاح السادس: «وعندما نفخ الكهنة في الأبواق... قال يشوع للشعب: اهتفوا لأن الرب قد وهبكم المدينة (أريحا) واجعلوا المدينة وكل ما فيها مُحَرَّماً للرب، باستثناء راحاب الزانية وكل من لاذ ببيتها فاستحيوهم، لأنها خبأت الجاسُوسَيْنِ المرسلَيْنِ لاستطلاع أحوال المدينة (...) فاندفع الشعب نحو المدينة كلٌّ إلى وجهته، واستولوا عليها. ودمروا المدينة وقضوا بحد السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير ثم أحرق الإسرائيليون المدينة بالنار بكل ما فيها في ذلك الوقت أنذر يشوع الشعب قائلاً: ملعون أمام الرب كل من يحاول أن يعيد بناء مدينة أريحا، فإن بِكرَه يموت وهو يضع أساسها، وصغيرَه يهلك وهو يقيم أبوابها».

الإصحاح الثامن: «فقال الرب ليشوع: مُدَّ رمحك نحو «عاي» لأني وهبتك المدينة. فَمَدَّ يشوعُ الحرَبة التي بيده نحو المدينة، وركضوا واقتحموا المدينة واستولوا عليها وأحرقوها بالنار وشرعوا في مهاجمة رجال عاي والقضاء عليهم. فَفَتَك بهم الإسرائيليون فلم ينج منهم أحد (...) وفنوا جميعهم بحد

السيف، رجع المحاربون الإسرائيليون إلى عاي وقتلوا كل من فيها. فكان جميع من قتل في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً (. . .) وظل يشوع مَادًّا يده بالحربة نحو المدينة، فقد نهبها الإسرائيليون لأنفسهم، بمقتضى أمر الرب الذي أصدره إلى يشوع. وهكذا أحرق يشوع عاي وحولها إلى تل خراب أبدي إلى هذا اليوم. وشُنِق ملك عاي على شجرة إلى وقت المساء».

الإصحاح العاشر: «فنفذوا أمره وأخرجوا الملوك الخمسة. . . وما إن أقبلوا بهم إليه حتى استدعى كل محاربيه، وقال لقادتهم الذين ساروا معه: «تقدموا وطئوا بأرجلكم رقاب هؤلاء الملوك» ففعلوا ذلك ثم قتلهم يشوع بعد ذلك وعلق جثتهم على خمسة أشجار حتى المساء (. . .) واستولى يشوع في ذلك اليوم على «مَقِيدَة» وقتل بالسيف ملكها وكل نفس فيها، لم يفلت منها ناج. وصنع بِمَلِك «مقيدة» ما صنعه بملك أريحا. ثم توجه يشوع على رأس جيشه من مقيدة إلى «لَبَنَة» وحاربها. . . فدمرها وقتل كل نفس فيها بحد السيف فلم يفلت منها ناج، وصنع بملكها ما صنعه بملك أريحا. بعد ذلك تقدم يشوع من لبنة إلى «لَخِيش» وحاصرها وهاجمها. . . فاستولوا عليها في اليوم التالي ودمروها وقتلوا كل نفس فيها بحد السيف نظير ما صنعوا بلبنة (. . .) ثم قضى يشوع عليه (ملك جازر) وعلى جيشه فلم يُفلت منه ناج. ثم تحرك يشوع وجيش إسرائيل من لخيش نحو «عجلون» فحاصروها وحاربوها، واستولوا عليها في ذلك اليوم ودمروها، وقضوا على كل نفس فيها بحد السيف على غرار ما صنعوا بلخيش. ثم اتجه يشوع بقواته من عجلون إلى «حبرون» وهاجموها، واستولوا عليها ودمروها مع بقية ضواحيها التابعة لها، وقتلوا ملكها وكل نفس فيها بحد السيف، فلم يفلت منها ناج، على غرار ما صنعوا بعجلون. وهكذا قضوا على كل نفس فيها. ثم عاد يشوع إلى «دبير» وهاجمها، واستولى عليها ودمروها مع بقية ضواحيها التابعة لها، وقتل ملكها وكل نفس فيها بحد السيف، فلم يفلت منها ناج، فصنع بـ«دبير» وملكها ما صنع بلبنة وملكها. وهكذا هاجم يشوع كل أرض الجبل والمناطق السهلية والسفح ودمرها وقتل كل ملوكها، ولم يفلت منها ناج، بل قضى على كل حي. . . وهكذا أخضع يشوع المنطقة بدءاً من قادش برنيع إلى

غزة، بما في ذلك منطقة جوشن وجبعون. وظفر يشوع بجميع هؤلاء الملوك واستولى على أرضهم دفعة واحدة، لأن الرب إله إسرائيل حارب عنهم»[54].

كما تنغرس الدموية الرعناء لدى اليمين المسيحي الصهيوني الذي يحكم أقوى دولة في العالم اليوم، في الوصف المهول لدمار العالم في آخر الزمان، خلال معركة هرمجدون، التي تشرح تفاصيلَها نبوءةُ دانيال في التوراة أيضاً، وفيها حديث عن أربعمائة مليون إنسان سوف تذوب جلودهم بنار الكبريت، ويعانون القتل الشنيع، لكن ذلك «ضرورة أخلاقية لتكتمل إنسانية الإنسان» كما يفتي بذلك شيوخ بوش الابن المعاصرون، من أمثال جيمي سواغارت وجيري فولويل وجيم بيكر، وأضرابهم من المستشارين الدينيين للبيت الأبيض ومجلس الأمن القومي[55].

إن محاكم التفتيش الرهيبة، أكبر دليل على عجز الغرب المسيحي قديماً عن استيعاب الاختلاف الديني، وهو عجز انتقل إلى داخل البيت المسيحي نفسه، وترجم إلى اقتتال إبادة شاملة بين البروتستانت والكاثوليك، اقتتال بقيت «حفرياته البشرية» في إيرلندا شاهدة عليه إلى اليوم!

أما المسلمون فحكموا الجزيرة الإيبرية ثمانية قرون لم يبيدوا فيها بشراً ولا ضاقوا فيها باختلاف دين. وكذلك حكم العثمانيون أوروبا الشرقية ستة قرون، وخرجوا منها وكأنهم ما دخلوها قط. في حين ترجمت مذابح الصرب لمسلمي يوغوسلافيا في زمن التحضر وحقوق الإنسان، أية قدرة على قبول التعايش تتملك بعض المسيحيين!

أما عن الاختلاف الثقافي فحدث ولا حرج، فحيث ترك الإسلام كل الشعوب على ما هي عليه، لم ينكر عليها إلا ما كان منكراً في الدين من شِرْك أو ظلم، ولم يسع إلى تنميطها ولا فرض عليها نموذج العيش الخاص بالعَرَب، ضاق الغرب الاستعماري بكل اختلاف، واعتبره مظاهر همجية ووحشية، وأكره

---

(54) نقلاً عن أحمد شحلان: التوراة والشرعية الفلسطينية، منشورات الزمن. كتاب الجيب رقم 41، الدار البيضاء 2004 ص80 ـ 84 بتصرف.

(55) انظر غريس هالسل: يد الله: لماذا تضحي الولايات المتحدة بمصالحها من أجل إسرائيل. دار النفائس بيروت 2000.

الشعوب التي احتلها على تغيير دينها ولغتها وثقافتها وتقاليدها تحت طائلة الإبادة. يحكي على سبيل المثال، شاهد عيان على إبادة شعب تسمانيا (جزيرة قرب أستراليا)، أن المستعمر الإنجليزي أرغم من تبقى من سكانها وهم أقل من 4٪ من سكانها على تعلم الزراعة واعتناق المسيحية وترك الترحل، بل وصنع الشاي والغناء باللغة الإنجليزية، تحت طائلة التعذيب الشديد. وكانت نتيجة أنهم أرغموا على لبس الملابس الأروبية وترك دهن شعورهم وجلودهم بشحم الكانجارو، هي أنهم أصيبوا بنزلات برد، بعد ابتلال ثيابهم تحت المطر، وهلكوا جميعاً لعدم وجود مناعة لديهم من التهاب الرئة![56].

إن الأشياء تتميز بنقيضها، ولقد كان الإسلام دائماً عالمياً، ولم تكن دعوى العالمية في الحضارة الغربية، إلا مجرد ادعاء، وها هو يفصح عن نفسه بنفسه، حين سماها ـ كما هي ـ حقاً عولمة! وما أحسن التمييز الدقيق الذي أقامه الباحث المغربي محمد عابد الجابري، بينهما حين قال: «العولمة شيء و«العالمية» شيء آخر. العالمية تفتح على العالم، على الثقافات الأخرى، واحتفاظ بالخلاف الإيديولوجي. أما العولمة فهي نفي للآخر وإحلال للاختراق الثقافي محل الصراع الإيديولوجي.

العولمة إرادة للهيمنة، وبالتالي قمع وإقصاء للخصوصي. أما العالمية، فهي طموح إلى الارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمي: العولمة احتواء للعالم، والعالمية تفتح على ما هو عالمي وكوني.

نشدان العالمية في المجال الثقافي، كما في غيره من المجالات، طموحٌ مشروعٌ ورغبةٌ في الأخذ والعطاء، في التعارف والحوار والتلاقح. إنها طرف الأنا للتعامل مع «الآخر» بوصفه «أنا ثانية» طريقها إلى جعل الإيثار يحل محل الأثرة. أما العولمة فهي طموح، بل إرادة لاختراق «الآخر» وسلبه خصوصيته، وبالتالي نفيه من «العالم». العالمية إغناء للهوية الثقافية، أما العولمة فهي اختراق لها وتمييع.

---

(56) كليف تورنبل: حرب قذرة (قصة إبادة السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا) ترجمة فؤاد الأهواني. كتاب الهلال. بدون تاريخ: ص250 ـ 251، 258 ـ 265، 260 ـ 271.

والاختراق الثقافي الذي تمارسه العولمة يريد إلغاء الصراع الإيديولوجي والحلول محله.. الصراع الإيديولوجي صراع حول تأويل الحاضر وتفسير الماضي والتشريع للمستقبل، أما الاختراق الثقافي فيستهدف الأداة التي يتم بها ذلك التأويل والتفسير والتشريع: يستهدف العقل والنفس ووسيلتهما في التعامل مع العالم: «الإدراك». (...)

وبالسيطرة على الإدراك، وانطلاقاً منها، يتم «إخضاع النفوس»، أعني تعطيل فاعلية العقل وتكييف المنطق والتشويش على نظام القيم، وتوجيه الخيال، وتنميط الذوق، وقولبة السلوك. والهدف تكريس نوع معين من الاستهلاك لنوع معين من المعارف والسلع والبضائع: معارف إشهارية تشكل في مجموعها ما يمكن أن نطلق عليه «ثقافة الاختراق»[57].

ثالثاً ـ نبي الرحمة للعالمين:

الرحمة المهداة والنعمة المزجاة والسراج المنير، خُلق ورُبي وبُعث ليكون رحمة للعالمين، بشيراً ونذيراً. صُنع من الرحمة وعُجنت طينته من اللِّين، وجُبل على التواضع وأدمن الخشية والتضرع والبكاء، ليقدم للبشرية في آخر عصورها وأقواها وأزهاها، نموذج الإنسان الكامل الذي أراده الله قدوة للبشر، بنوره يهتدون وعلى سنته يمضون، حتى لا يكون بعضهم لبعض إلا عوناً في الخير لا الشر، وظهيراً في البناء لا الهدم.

ها هو القرآن الكريم يعلنها واضحة، ويصرح بها جلية ناصعة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[58] فيحدد الغاية من خلق سيد الخلق ومِنْ بَعْثِه بالهَدي وتكليفِه بالرسالة: إنها رحمة العباد كل العباد، بلا تخصيص ولا استثناء!

أما كونه بُعث للعرب خاصة ثم للناس كافة، فلا يُقصد به تمييز قومه عن غيرهم بشيء، عدا التكليف بحمل الأمانة للناس، ونقلِها إليهم مجاهدةً للذات

---

(57) محمد عابد الجابري: العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات. في العرب والعولمة، مركز دراسات الوحدة العربية. تحرير أسامة أمين الخولي. ط1 1998. بيروت ص301 ـ 302.

(58) سورة الأنبياء، الآية: 107.

وجهاداً بالنفس والمال، وتبليغاً وتوضيحاً، وقدوةً ومثالاً. ولعمري إنها لأمانة ثقيلة ومسؤولية جسيمة، ليس فيها من الاصطفاء والتمييز إلا ثِقلُ الأمانة وعبء المسؤولية.

إن قوله ﷺ: «بعثت لكم خاصة»، إنما هو إشارة لمرحلة انتقالية ضرورية واقعية، لأنه لا بد من نبي بشر يعيش في قومه، ينطلق في دعوته منهم، بما أن الأنبياء والرسل لا يبعثون فوق السحاب، ولا ينزلون ملائكة من السماء! إنها مجرد محطة انطلاق عابرة، يتحرك منها قطار الدعوة ليكون مستقره خطاب «يا أيها الناس»!

ومعاذ الله أن يكون التخصيص هنا واقعاً تاريخياً وقدَراً ربانياً وخطاباً نبوياً بمنطق «شعب الله المختار»!

إنها رحمةُ تعليم الغلاظ، اللينَ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[59] والرفق: «ما دخل الرفق شيء إلا زانه ولا خلا من شيء إلا شانه». ورحمةُ رفع الإصر والأغلال عن البشرية جمعاء، وقلب موازين العلاقات الاجتماعية الطاغوتية في زمن الاستعباد: «إن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم». إنها رحمة التلقائية في التعبير عن العواطف، لِقوم تربوا على أن ذلك ضَعف يثير الاحتقار: «يا رسول الله إن لي عشرة صبيان لم أقبل أحداً منهم قط»، فيجيبه ﷺ: وما أفعل لك إن نزع الله الرحمة من قلبك»!

رحمة عامة، فلا رحمة مع الاستثناء والتخصيص، بل هو الظلم والتمييز. وهذا ما فَقِهَه ابن عباس حيث قَصَر فضل رسول الله ﷺ على الأنبياء في الأرض، في كونه بُعث للناس كافة، وبُعثوا لأقوامهم خاصة[60]. وهو الفهم الذي يزكيه قوله ﷺ «أوتيت خمساً لم يؤتهن أحد قبلي (. . .) وبعثت للناس كافة أحمرهم وأسودهم، وبعث الأنبياء من قبلي لأقوامهم خاصة».

---

(59) سورة آل عمران، الآية: 159.

(60) رواه الدارمي بسند صحيح.

«عن أبي صالح قال: كان النبي ﷺ يناديهم «يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة»[61]. يكرر النبي ﷺ حقيقة كونه رحمة عالمية حتى تبلغ هذه الحقيقة بالتكرار إلى العموم بالإلحاح فتنغرس في وعيهم (كان .....)، ويخاطب بها العالمين لا قومه فقط (يا أيها الناس)، ويُعبر بالمصدر لا بالصفة (رحمةٌ) للإطلاق والمبالغة، ويعلنها بدون مقابل، مجاناً لوجه الله لا يريد بها جزاء ولا شكوراً، ولا يطلب مقابلاً لها على عظمها نعمة (مهداة)، ويستعمل أداة الحصر ليبين أنها رحمة خالصة لا منغص لها ولا شائبة تشوبها (إنما) ويعلن بها، يدلل عليها، ينادي بها (يا أيها): ست حقائق عظيمة تجتمع في عبارة موجزة بليغة كي لا يتسرب لورثة رسالته من بعده أي شبهة احتكار أو علو أو إقصاء، ولا يتشكك عموم المخاطَبين بهذه الرسالة بأنهم مثلهم مثل من سبقهم إلى الإسلام، أحق بهذه الرحمة وأهلها. إلحاحٌ وتعميم وإطلاق وإهداء وخُلوص وإعلان: هذه هي الرحمة المحمدية مبذولة لكل طالب حق أو خير.

لا يقف الأمر عند الدعوى، وحاشاه ﷺ من ذلك، فقد كان حقاً رحمة مهداة للقريب والبعيد، والبر والفاجر، والكبير والصغير، والمرأة والرجل، والكافر والمؤمن.

أ ـ ها هو يرحم حتى في الرحمة! فالعبادة وهي رحمة بذاتها كان يراعي فيها أحوال الضعاف، يسرع في صلاته وقد أحس بدخول ناس خلفه: «عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي في رمضان (...) فلما حس أنا خلفه جعل يتجوز في الصلاة. ثم دخل رحله فصلى صلاة لا يصليها عندنا (...) قلنا له حين أصبحنا أفطنت لنا الليلة؟ فقال: نعم، ذاك الذي حملني على الذي صنعت (...) فأخذ يواصل رسول الله ﷺ في آخر الشهر، فأخذ رجال من أصحابه يواصلون، فقال (...) ما بال رجال يواصلون؟ إنكم لستم مثلي»[62].

---

(61) رواه الدارمي بسند مرسل صحيح.

(62) البخاري، الترمذي، أحمد والدارمي.

ويحاذر في التكليف بما لا يطاق حتى في الأمر اليسير والضروري: «عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لولا أن أشق على (. . .) أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»[63].

ويراعي للأم، فيصرفه ذلك عن لذة المناجاة السابحة في الزمن: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأدخل الصلاة أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأخفف من شدة وَجْدِ أمه به**»[64].

يفعل ذلك ﷺ ويأمر به ردعاً للمتنطعين، وصدا لتلبيس إبليس، يدخل على الصالحين من باب التشديد على الناس: «عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن فيهم السقيم والضعيف والكبير فإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء»[65]. فلا غرو أن ينقذ أمته برحمته من مهلك الرهبانية، بالموقف الرحيم الحازم من الثلاثة المتنطعين الذين كادوا بحسن نية أن يفتحوا على المسلمين طريق المزايدة الخاسرة التي فتحها الرهبان من قبلهم ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[66] وذلك حين اتفقوا أن يحرموا على أنفسهم بعض الحلال ويوجبوا عليها بعض المستحبات. فكان جواب الرحمة القاطع، بعد أن عدد أشكال اليسر في الطاعات «ومن رغب عن سنتي فليس مني»!

ب ـ وها هو ﷺ النابت في بيئة قاحلة العواطف قحولة الأرض، يترك ديدن قومه الذي عبر عنه الشاعر:

وتجلدي للشامتين أريهمو أني لريب الدهر لا أتضعضع

فيصرح بضعفه، ويكشف عطفه وعاطفته، مِثْلَ رحمتِه بالأطفال. يسمع حديث الوأد، فيبكي بكاء الثكلى: «عن الوضين أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله (. . .) كانت عندي ابنة لي فلما أجابت (. . .) فأخذت بيدها فرديت

(63) البخاري، الترمذي، النسائي، أبو داود، ابن ماجة، أحمد ومالك.

(64) الترمذي، ابن ماجة، وأحمد.

(65) البخاري، مسلم، الترمذي، أبو داود، وأحمد بسند صحيح.

(66) سورة الحديد، الآية: 27.

بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول يا أبتاه. فبكى رسول الله ﷺ حتى وَكَفَ دمعُ عينيه، فقال له رجل من الجلساء (...) أَحْزَنْتَ رسول الله ﷺ. فقال له كُفَّ، فإنه يسأل عما أهمه. ثم قال له: أعد علي حديثك. فأعاده، فبكى حتى وَكَفَ الدمعُ من عينيه على لحيته ثم قال له: «إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأْنِفْ عَمَلَك»[67].

ويحمي حقوق الوليد حتى ولو كان من علاقة آثمة: «عن عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال كنت جالساً عند النبي ﷺ فجاءته امرأة من غامد. فقالت يا نبي الله: إني قد زنيت وأنا أريد أن تطهرني، فقال لها (...) ارجعي. فلما أن كان من الغد أتته أيضاً (...) فقال لها (...) ارجعي. فلما أن كان من الغد أتته أيضاً (...) فقال لها (...) ارجعي حتى تلدي. فلما ولدت جاءت بالصبي تحمله (...) قال فاذهبي فأرضعيه حتى تَفطميه. فلما فطمته جاءت بالصبي في يدهِ كسرة خبز». آنذاك فقط أقام عليها الحد، ونهى خالد بن الولي عن سبها، وشهد لها بقبول توبتها: «لا تسبها؛ فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له. فأمر بها فَصَلّى عليها ودُفِنَت»[68]. بل ويبكي بكاء مريراً لمشهد احتضار طفل: «فلما دخلنا ناولوا رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تُقلقل (...) فبكى رسول الله ﷺ فقال سعد بن عبادة: أتبكي؟ فقال إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[69].

ويَرْفُقُ بطفل أن يزعجه في لَعبه، حتى ولو كان ملعبه ظهرَ رسول الله ﷺ! «قال الناس يا رسول الله: إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة أَطَلْتَها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يُوحى إليك. قال: «كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أُعْجِلَه حتى يقضي حاجته»[70]. سواء أكان الطفل ذكراً أو أنثى، فلا تمييز في الرحمة بينهما، كما يفعل أهل الجاهلية

---

(67) الدارمي بسند مرسل حسن.

(68) مسلم، أبو داود، الدارمي بسند حسن.

(69) مسلم، النسائي، أبو داود وأحمد.

(70) النسائي بسند صحيح.

القديمة والحديثة: «عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ خرج يصلي وقد حمل على عنقه أُمَامَة بنت زينب إذا ركع وضعها وإذا قام حملها»[71].

ت ـ وها هي رحمته ﷺ تجاوز الطائعينَ من الكبارِ والأبرياءَ إلى المذنبين: يتجاوز عن الحد في الفاحشة القبيحة لأن الفاعل معاق! «أُتِي بامرأة قد زنت. فقال: ممن؟ قالت: من المُقْعَد الذي في حائط سعد. فأرسل إليه فَأُتِي به محمولاً فَوُضِع بين يديه، فاعترف. فدعا رسول الله ﷺ بإثكالٍ (عذقُ النخلة) فضربه ورَحِمَه لِزَمَانَتِه وخفف عنه»[72].

بل إنه ليحول جزاءَ الذنب من العقوبة إلى المساعدة الاجتماعية لأن الفاعل مُعْدِم! بل يضاحكه: «... إذ جاءه رجل، فقال يا رسول الله هلكت. قال: ما لك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول الله ﷺ هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا. فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال لا فقال تجد إطعام ستين مسكيناً؟ قال: لا. فمكث النبي ﷺ فبينما نحن على ذلك أُتي النبي ﷺ بِعَرْق فيها تمر (...) قال: أين السائل؟ فقال أنا قال: خذها فتصدق بها. فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لأَبَتيها (...) أهلُ بيت أفقرُ من أهل بيتي. فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: أَطْعِمْهُ أهلك»[73].

ث ـ بل إن رحمته تُجاوز المؤمنين طائعين وعصاةً، إلى غير المسلمين. تجوع قريش سنة ممحلة في عز صراعها مع الرسول ﷺ، فيرسل إليها طعاماً يكفي فقراءها. ويؤذيه أهل الطائف حين لجأ إليهم عام الحزن شر أذية، فينزل جبريل بالأمر «السلام يقرئك السلام ويقول لك: إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين». فيجيب، كلا فإني أرجو الله أن يُخرج من أصلابهم من يوحده!». يوصي عند موته بالذمي خيراً، ويشدد النكير على مُؤْذيه «من آذى لي ذمياً فقد

(71) الدارمي بسند صحيح.

(72) النسائي بسند صحيح.

(73) مسلم، الترمذي، أبو داود، ابن ماجة وأحمد.

برئَتْ منه ذمةُ الله ورسولِه». ينكر قتل الصبيان والنساء، حتى ولو كان الرجال من ذويهم حاملين السلاح مقبلين على استئصال خضراء المسلمين: «حدثني نافع أن عبد الله أخبره أن امرأة وُجدت في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان[74].

ج - وها هي رحمته ﷺ، بعد أن شملت الناس جميعاً، تُجاوزهم إلى الحيوان: يمسح على جمل مظلوم جاء يشكو له: «فدخل يوماً حائطاً من حيطان الأنصار فإذا جمل قد أتاه (...) فلما رأى النبيَّ ﷺ حن وذرفت عيناه. فمسح رسول الله ﷺ سراته وذفراه فسكن. فقال: من صاحب هذا الجمل؟ فجاء فتىً مِنَ الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله. فقال: «أما تتقي الله في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَهَا الله؟ إنه شكا إلي أنك تجيعه وتُدَئِبه»[75]. ويعتبر نحر ناقة، رغم أنه مباح شرعاً، معصية! لأنه جاء في سياق نكران الجميل: «فقد أُسِرَتْ امرأة من الأنصار وأصيبت العضباء (...) فانفلتت ذات ليلة من الوثاق فأتت الإبل (...) وناقةٌ مُنَوَّقَة فقعدت في عجزها ثم زجرتها فانطلقت (...) ونذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها فلما قدمت المدينة رآها الناس (...) فذكروا ذلك له فقال: سبحان الله بئسما جَزَتْها. نذرتْ لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها. لا وفاء لنذر في معصية»[76]. ويأمر برد بيض طائر فزع لذلك: «عن عبد الرحمان بن عبد الله عن أبيه قال: نزل رسول الله ﷺ منزلاً فانطلق إنسان إلى غيضة فأخرج منها بيض حُمَرة فجاءت الحُمَرة تَرِفُّ على رأس رسول الله ورؤوس أصحابه فقال أيكم فجع هذه؟ فقال رجل من القوم: أنا أصبت لها بيضاً. قال رسول الله ﷺ أردده (...) رحمةً لها[77].

هذه رحمة مهداة، يدعو لها صاحبها، يُعرف بها ويمارسها، ينطق عنها وينطلق منها. ثم لا يكتفي بذلك، بل يدعو لها ويُعَلِّمها: عن أبي هريرة قال: قام

---

(74) أحمد بسند صحيح.

(75) مسلم، أبو داود، ابن ماجة والدارمي بسند صحيح.

(76) النسائي، أحمد والدارمي.

(77) أحمد بسند صحيح.

أعرابي فبال في المسجد، فتناوله الناس. فقال لهم رسول الله ﷺ: دعوه، فأهريقوا على بوله ماء أو ذنوباً من ماء، فإنما بُعثتم مُيَسِّرين ولم تُبعَثُوا مُعَسِّرين[78].

لقد شهد له بهذه الرحمة خالقُه الذي صنعه على عينه ورباه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[79] ورَحِمَهُ بهذه الرحمة، وقاسَمه أسمين عظيمين من أسمائه الحسنى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[80]. لقد كان الرسول ﷺ رحيماً حتى أشفق رب العزة عليه من إهلاك نفسه رحمةً بالناس خوفاً عليهم من الكفر والعذاب: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[81]، ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[82].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(78) البخاري، الترمذي، النسائي، أبو الداود وابن ماجة بسند صحيح.

(79) سورة القلم، الآية: 4.

(80) سورة التوبة، الآية: 128.

(81) سورة فاطر، الآية: 8.

(82) سورة الشعراء، الآية: 3.